

العربي في لغة عالمية خالدة لأنها لغة القرآن

لدكتور محمد عادل الشريف
أمين الفتوى - وكيل المفتي العام - الأردن

شارك المكتب الدائم للاتحاد البريدي العربي في استفتاء المكتب الدائم للتعريب بالرباط حول (علاقة الاسلام باللغة العربية) .
وقد وافانا بأجوبة قيمة لعدد من رجال الفكر في المملكة الاردنية الهاشمية تلقاها من معالي وزير المواصلات الذي أشرف في المملكة الاردنية الشقيقة على تنسيق هذه الابحاث وقد أصدر الاتحاد البريدي العربي الموقر هذه المجموعة في كتيب صغير خاص بالاستفتاء في الاردن .

العصر الاول - عصر الجاهلية وينتهي بظهور الاسلام ومدته نحو مائة وخمسين سنة .

العصر الثاني - عصر صدر الاسلام ويشمل بني أمية وبيتدى بظهور الاسلام وينتهي بقيام الدولة العباسية سنة 132 هـ .

العصر الثالث - عصر بني العباس وبيتدى بقيام دولتهم وينتهي بسقوط بغداد في ايدي (التتار) سنة 1665 هـ .

العصر الرابع - عصر الدول المتتابعة التركية - وبيتدى بسقوط بغداد وينتهي ببدا النهضة الاخيرة سنة 1220 هـ .

العصر الخامس - عصر النهضة الاخيرة وبيتدى من حكم الاسرة العلوية بمصر وينتهي في سنة 1950 م .

ففي العصر الاول كانت لغة العرب من أغنى اللغات وأعرقها قلما وأغزرها مادة وهي على ما هي

ومن جملة هذه الدراسات بحث قيم لفضيلة الشيخ محمد عادل الشريف أمين الفتوى بالديار الاردنية ننشر مقتطفات ضافية منه شاكرين :

ليس من الهين أن توضع لغة تتلقاها كل الامم بالقبول على معنى أن تهجر لغاتها وتقيم هذه اللغة مكانها ، وإذا فرضنا أن شعوبا غير عربية رضيت أن تتخلى عن لغاتها فإن الشعوب الذين ينطقون باللغة العربية أحرص الناس على حياة لغتهم فمن المحال أن يتبدلوا بها لغة أخرى ، ولو تضافرت عليها أمم الارض جميعها ، لأنها لغة القرآن الذي هو معجزة الرسالة ومطلع الهداية ، وقد كتب محمود بك سالم في مقال (عليكم باللغة العربية) : (انها لغة المستقبل ولا شك انها لاتموت كغيرها من اللغات وتبقى هي اللغة الحية حتى يرفع القرآن نفسه من بين المسلمين لا سح (الله) .

ولا يخفى أن اللغة العربية عصورا فقد مرت بها خمسة عصور .

شاعت اللغة العربية منذ ما قبل الاسلام بتأثير الاسواق مثل (عكاظ) وغيره بالجوار والمصاهرة فتوحدت لغات العرب وتمثلت جميعها في لغة قريش واندماج سائر اللهجات العربية فيها واكثرها يرجع الى نزول القرآن بلغتهم وظهورها حسب الدعوة منهم ، وانتشار دينه وسلطانه على ايديهم لانهم كانوا هم القائمين بأمر الاسلام بعد فتح مكة ومنهم كان الخلفاء والامراء وقادة الجيش ورجال الدولة وبحكم الضرورة كانت لغتهم هي اللغة الرسمية بين كل القبائل وانتشرت اللغة العربية في ممالك الفرس والروم وغيرها بالفتوح (المغازي) ، وتقربت الاعاجم اليهم لتعليم لغتهم والدخول في دينهم المستمد من القرآن العربي المبين ومن هنا اتسمت اغراض اللغة العربية بسلوكها منهجا دينيا فثبتت العقائد الدينية التي جاء بها الاسلام من اثبات وجود الخالق وتوحيد ذاته وتقديس صفاته ، ووضحت الشريعة باستنباط الاحكام المناسبة والملائمة للحوال الشخصية زمانا ومكانا ، ولا حاجة اذا لذكر باقي العصور التي تعاقبت على اللغة العربية ، وقد قال ابن خلدون في مقدمته وهو المؤرخ المشهور : (اعلم ان القرآن نزل بلغة العرب وعلى اساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه واغراضه كان النبي صلى الله عليه وسلم يبين لهم المجمل ، ويبين الناسخ من المنسوخ بين لهم أسباب نزول الآيات ومقتضى الحال ..) يقول صلى الله عليه وسلم (أنا سابق العرب الى الجنة وصهيب سابق الحبشة الى الجنة ، وسلمان سابق فارس الى الجنة) ثم قال (من احسن منكم أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالفارسية لانها اقرب الى القلب واسهل في التخاطب) وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه (تعلموا العربية فانها تزيد في المروءة) . وقال الزمخشري (الله احمد ان جعلني من علماء العربية وجبلي على الغضب للعربية واتى لي أن انفرد عن صميم انصارهم وامتاز (أي انفصل) وانضوى الى لقيف الشعوبية (اعداء العربية) وهنا يجبل بنا أن نذكر ما قاله محمد جاد المولى بك : كان العرب قبل البعثة المحمدية قد وقعت بينهم الفرقة وتشقت الالفة كانوا اخوان وبر ودبر اذل الامم دارا لا ياوون الى جناح دعوة يعتمسون بها وصلوا قبل البعثة المحمدية الى هاوية الانحلال الاجتماعي بما لم يعهد له مثل في تاريخ الامم الى أن قال (وقد جرت سنة الله في الكائنات ان يأتي بالثور بعد الظلمة وبالمر بعد المحل) . ومن سنته أيضا ان يبعث رسولا متى وصل الانحطاط البشري الى ذروته رحمة بعباده ورافة بخلقه .

عليه من قوة وتناسق اجزائها لغة قوم اميين لم يكونوا في حكمة اليونان ولا صنعة الصين ذهبوا وبقيت سائرة بعدهم مع كل جيل ملائمة لكل زمان ومكان ولا عجب ان بلغت مكانتها شأوا بعيد المدى اذ كان لها من عوامل النمو والازدهار والرتي ما قلما يتبها لغيرها وذلك لما فيها من اختلاف طرق الوضع والدلالة والتصريف والاشتقاق وما فيها من المجازات وتعدد المترادفات ولما تشرفت به من نزول القرآن الكريم والسنة النبوية بلسانها وما رواه لنا منها ائمة اللغة وجاء به القرآن الكريم والحديث النبوي هو نتيجة امتزاج لغات الشعوب التي سكنت جزيرة العرب ، ولا يعلم بالضبط جميع الاسباب التي أدت الى اندماج لغات بعض هؤلاء الشعوب في بعض وغاية ما علم من الآثار الحجرية وبعض الروايات انه كان لجنوبي الجزيرة وشمالها لغات متميزة كل التميز عن العربية التي رويت لنا درست وبقيت منها اشباح تتراءى احيانا في بعض لهجات العربية الاخير وطرق اعرابها واشتقاقها ، اما سبب اختلاف لهجات العرب فهو ان الامة العربية تألفت اخيرا من شعبيين عظيمين (القطانيين) او (اليمنيين) و (الزواريين) وتشعب من كليهما شعوب وقبائل لها لهجات مختلفة الفروع متحدة الاصول ، ولا ننسى ان البيئة ونزوح الديار ووسائل المعيشة كل ذلك بالاضافة الى غيره قد ابقى في كلام كل قبيلة ميزات ما يسمى مجموعها باسم لهجة القبيلة او لغتها .

العصر الثاني : عصر الاسلام : كانت اللغة العربية لاتعدو اغراض المعيشة البدوية واثارة المنازعات والمشاحنات الا ان روحا من الله تنسم بين ارجائها فأيقظها من رقدتها وارشدتها الى التعاون على البر والتقوى في معاشها ولغتها وجماعتها فظهر ذلك جليا واضحا في الاسواق التجارية اللغوية الاجتماعية وفي الازعان فيها الى الفصحاء والنبلاء من قريش وتميم وغيرها لان يجتمعوا تحت لواء واحد ، ويتفاهموا بلسان واحد فكان ذلك ايدانا من الله باظهار الاسلام فيهم ولكن نفوسهم لم تألف هذا النمط الجديد وبيننا هم كذلك جاء النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لاما شعئهم ، موحدا كلمتهم مهذبا طباعهم مبينا لهم طريق الحق وجادة الصواب بشريعة واسعة تتمثل في كلام الله ورسوله وكان من نتيجة ذلك ان اسست لهم جامعة تومية مع التفاف العرب حول صاحب هذه الدعوة وتفهمهم شريعة كلامه وخضوعهم بعد لزعامه ورئاسة قومه وخلفائه وولائه وفتوحهم تحت الويتهم ممالك الاكاسرة والقياصرة وغيرها من جبال البرانس (جنوبي فرنسا) الى الهند والصين) .

درجة انتشار الاسلام :

ولقد ساعدت الفتوحات العظيمة على انتشار الاسلام بسرعة فائقة داخل البلاد تمكن ما يزيد على (50) الفا من الغوليا المسلمين من جعل ما لا يقل عن (245) الفا من العبيد الوثنيين يدخلون الاسلام وذلك لعرفتهم باللغة العربية .

تأثير الفكر في اللغة :

للكسر اثر عظيم في اللغة ولولا الفكر لم يكن لوجودها اية فائدة. الفكر هو الذي يربط الالفاظ بمعانيها وهو الذي يتوسل به الانسان الى توسيع نطاق اللغة وتنظيمها فيدخل فيها عند الحاجة كلمات جديدة او يبتدع فيها اساليب يضع لها قواعد تساعد الناس على تعلمها وتحفظهم من الخطأ عند النطق بها .

اما اللغة فهي تصور ما يخطر في الفكر من المعاني وهي التي تجعل المعاني محفوظة باتية . يقول أحد الفلاسفة : ان الافكار التي تودع في الالفاظ كالشرارات التي لا تبرق الا لتذهب . وهنا نتساءل هل يمكن اتحاد البشر في لغة ؟ قال العالم الفرنسي ديكرت : (ان تعدد اللغات أدى الى صعوبة التفاهم بين الافراد والجماعات وهذا ما جعل سير المدنية بطيئا) وجاء الطبيب البولوني Esperanto اعتمد على (28) حرفا ووضع له (16) (لودنيج زامنهوف) فوضع اللسان المسمى (الاسبرانتو) قاعدة معظم كلماته من اللغة الرومانية والانجليزية . وفي العالم جمعيات تدعو لهذا اللسان يقدرونها بنحو (1776) جمعية وفي المانيا وحدها من هذه الجمعيات (441) جمعية مركزها الرئيسي في مدينة (لايبتيق) — ولجمعيات العالم كلها مركزان أساسيان أحدهما في (جنيف) والآخر في (باريس) وفي أوروبا وأمريكا والصين واليابان صحف تصدر بهذه اللغة وفي دائرة المعارف الألمانية بلغ عدد المتكلمين بها قرابة (130) الفا .

وخلاصة القول انه ليس من المهيمن ولا من السهولة يمكن أن توضع لغة تتلقاها كل الامم بالتبول على معنى أن تهجر لغاتها وتقيم هذه اللغة مكانها ، وإذا فرضنا ان شعوبا غير عربية رضيت أن تتخلى عن لغاتها فان الشعوب التي تنطق (بالضاد) احرص الناس على حياة لغتهم فمن المحال أن يستبدلوها بلغة أخرى .

ولنشرع الآن في الإجابة عن الاسئلة :

هناك تلازم بين انتشار الاسلام وانتشار اللغة بل هناك ارتباط لان انتشار الاسلام متوقف على انتشار وقوة اللغة في أي مكان أو زمان بل كل منهما متوقف على الآخر فبدون اللغة العربية لا ينتشر الاسلام لان القرآن

جاء في فقه اللغة للشعالبي (من أحب الله تعالى أحب رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ومن أحب رسوله العربي أحب العرب ومن أحب العرب أحب العربية التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب ومن أحب العربية عنى بها وثابر عليها وصرف همته اليها ومن هداه الله للاسلام وشرح صدره للايمان اهتم بها كاهتمام تحصيل زاده لنفسه .

يلاحظ أن الاسلام يواكب اللغة العربية ففي المكان الذي تكثر فيه المعاملات يكون الاسلام فيه أكثر انتشارا وتعتبر (تابورا) حصن الاسلام المنيع في افريقيا الشرقية يقدر سكان هذه العاصمة بنحو (35) الف نسمة منهم (25) الف نسمة يدينون بالاسلام ويوجد بمدينة (تابورا) وضواحيها نحو (30) مسجدا ومدرسة لتحفيظ القرآن وأربعة مساجد كبيرة خصص أحدها للعرب وأما باقي المساجد فعبارة عن مبان بسيطة من القش ولا تقام صلاة الجمعة بانتظام الا في مساجد العرب وتقوم المكاتب الدراسية بتعليم النشء القراءة والكتابة بالحروف العربية وبتلقينهم القرآن .

ولقد ثبت تاريخيا ان المسلمين الغريباء تمكنوا حتى سنة 1911 المتداخلة في سنة 1912 من التغلغل الى قلب المناطق العربية من افريقيا الشرقية ونشر الدعوة الى الاسلام بين الوطنيين كما استطاعوا وضع هذه البلاد تحت نفوذهم الاقتصادي والتجاري وما ذلك الا للتطور الفكري نحو الافكار الاسلامية بين قبائل الوطنيين من حين لآخر . ولقد انتشر الاسلام في الاراضي السودانية من تلقاء ذاته تمشيا مع اللغة العربية بدون أي مجهود يذكر . الفتح الاسلامي كان في آونة نهضة فكرية اتجهت فيها الاذهان الى المطالبة بديانة ثابتة الدعائم صحيحة الاصول .

ومن العوامل السياسية التي ساعدت على انتشار الاسلام تدخل القبائل الاسلامية في الاوساط الوثنية بطرق سليمة كما تم لهم ذلك في السودان العربي ، أما العوامل الاجتماعية التي ساعدت على نشر الديانة الاسلامية في تلك الاقاليم فكانت أقوى حجة وانجح اثرا الا انها لا تعتبر سببا اوليا مثل العوامل السياسية حيث انها كانت تعمل على انتشار الدين بطرق بعيدة المدى ولكنها كانت في كثير من الاحوال تأتي بنتائج ائجع من العوامل السياسية الاولى فان الاسلام كان ولا يزال في نظر اهالي السودان يعتبر في مرتبة عالية من التقاسة والتحضر بالنسبة لعبادتهم القديمة .

الدعوة في قلب الجزيرة العربية طبيعة الجزيرة نفسها ومعرفتها للغة العربية أصالة وسليقة .

(وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) (سورة الزخرف) أي ان هذا القرآن شرف لك ولقومك وسوف تسألون عن التفريط فيه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) . (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون (27) قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) (الزمر) .

كانت العرب بعد اسماعيل عليه الصلاة والسلام على دين ابيه ابراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم تعبد الله وتوحده وكان العرب آنذاك يعبدون الحجارة وقد ظهر منهم أفراد لم ترتهم عبادة الاحجار والاشجار ، فكاتبوا يعبدون الله على ملة ابراهيم الا انهم كانوا ينتظرون نبيا عربيا يخلصهم من هذه المعبودات والخرافات ينتظرون من يجمع شتاتهم ومعنى هذا ان لغة ابراهيم هي العبرانية وهم العرب الاتحاح فلم تصل دعوته الى أعماق قلوبهم وقد كان ابراهيم في الحجاز يدعو الناس الى دين الله كان غير قادر على افهام العرب اللغة العبرية لغته ولغة ولده اسماعيل ولذلك دعا ربه وهو يبني البيت (الكعبة) مع ولده اسماعيل فقاتل (رينا) وبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم (129) (البقرة) . وقد جرت سنة الله في الكون انه كان يرسل لكل أمة رسولا منها لتفهم وتعني منه ما يقول قال تعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) (4) (ابراهيم) .

ان نزول القرآن عربيا في العرب وفي جزيرة العرب كان بمثابة اقامة الحجة اذ لم ينزل لهم كتابا أعجيبا لا يعرفونه ولا يفهمونه كما انه لم يرسل لهم رسولا أعجيبا لا يفهمون حديثه ولذلك قال سبحانه (ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجبي وهذا لسان عربي مبين) (103 النحل) . فأياته واضحة يفهمها العرب لانها لغتهم ولئلا يكون للعرب على الله حجة قال تعالى : (ولو نزلناه قرآنا أعجيبا لقاتلوا لولا فصلت آياته ، آعجبي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء (44 فصلت) .

أما اليوم فان الاستعمار بثتى أنواعه والوانه قد عزز عصاه في أكثر الدول العربية والدول الاسلامية

الكريم (الذي انزل على النبي العربي في غياة البلاغة والفصاحة ولا يمكن للغات الاجنبية أن تعبر عما جاء فيه) قد تحدى الامم بأسرها (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لاياتون بمثلثه ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وكذلك الاحاديث النبوية .

فالاسلام كان أكثر ذيوغا وانتشارا في البلاد التي تحبل طابع العربية أو تتكلم بالعربية أو ان الاسلام يكون أكثر انتشارا عندما ينفر المرشدون والموجهون العالمون باللغات الاجنبية بالاضافة الى اللغة العربية .

ان للاسلام ثقافة مبتكرة مستقلة تستمد نورها من وحى القرآن الكريم والسنة المطهرة دون أن يكون لاية أمة من أمم الارض على المسلمين يد فيها .

فلقد كان للمسلمين فقه أوسع ما عرف في علوم التشريع والاجتهاد وأوضحه نظرا وأصدقته مخرجا وها هي ذي آثار ثقافتهم بارزة في كتبهم كأصدق شاهد على صفاء أذهانهم واستنارة افكارهم وما كان سطوع هذه الكواكب المشرقة وما لها من التأثير لاخراج الناس من الظلمات الى النور الا بسبب احرازهم على أوفر جانب من الثقافة الفكرية وتضلعمهم في اللغة العربية التي تمكنوا بفضلها من نشر الاسلام .

ولندع الحكم بين اللغة العربية واي لسان اعجمي لمن يعرف العربية الفصحى ويعرف ذلك اللسان الاعجمي فهو الذي قد يصفى اليه الناس متى انسوا فيه الانصاف ويتلقون حكمه بالقبول . والذي أقوله وأنا على بينة مما أقول ان اساليب اللغة العربية أقرب الى النظم الطبيعية من اللسان الالمانى مثلا فان فيه ضروبا من التصرف كالاعمال المركبة من قطعتيها احدهما اول الجملة وثانيتهما عند انتهائها فالسامع لايعرف معنى الفعل ومن هنا يفقد الكلام ترتيبيه الطبيعي ومن أجل هذا فان اصحاب اللغات سبقونا الى عقد المجامع اللغوية منذ احقاب فالجمع اللغوي في المانيا تألف سنة 1617 ، والجمع اللغوي الافرنسي سنة 1634 واننا لا ننسى بأن كلمات كثيرة حدثت في اللغة العربية واصبحت تجري على السنة ادبائنا مما تشدد الحاجة فيه الى مجمع لغوي اصبح اليوم في ايدينا .

اسئلة ايضا حية :

1) ان السبب المباشر في انتشار الاسلام هو صحة الدعوى التي جاء بها رسول الامة العربية لانها قامت على الحجة والبرهان والمنطق السليم وما ذل

تتدخل في نظمها ودراساتها ومناهجها وقد نجح المستعمر في تضليله وتمويهه .

(2) ان الوازع الديني يقوى في النفوس متى كان دعاة الوعظ والارشاد واعين لرسالتهم . فقد كان بلدنا قبل الاستعمار البريطاني اقوى ايمانا وأصلب عودا وبقينا . وكان العهد العثماني غير مشجع للعلم والتعليم لكنه كان يقوي ويشجع النواحي الدينية حرصا على سمعة الاسلام والمسلمين وتنفيذا لاحكام القرآن . أما عهد الاستعمار فكان عهد حرية وإباحية ولا دينية .

(3) ان القرآن الكريم والحديث النبوي قد سلكا في البلاغة مذاهب ينقطع دونها كل بليغ وان فتح الممالك الكبيرة كبلاد الفرس والروم قد زاد في مجال اللغة بسطة بما نقل اليها من المعاني العلمية أو المدنية ففضل الاسلام على اللغة العربية يظهر في غزارة مادتها وبراعة أساليبها واتساع أفقها ومذاهب بيانها وكثرة الأغراض التي يتسابق اليها فرسان الخطابة والكتابة والذي احاول الحديث عنه هو أثر لغة القرآن بالثقافة الاسلامية في تغذية الفكر الانساني ومسايرة التطور العلمي والاجتماعي ، فقد سطع نور الاسلام على وجه المعمورة فلم يجد من ثقافات الأمم الغابرة الا أمشاجا من حكمة اليونان وآداب الرومان وتعاليم المسيحية على ما أصابها من تحريف فحمل الملك (غوستينان) على الفلاسفة والحكماء انتصارا منه لآراء الكنيسة الغربية التي كان من قواعدها يومئذ اضطهاد العلم والعلماء والقسوة على الحكمة والحكماء ففر من وجه العسف الروماني جم غفير من الفلاسفة واستعملوا النظريات

الفلسفية للذيد عن آراء فريسق من المسيحيين حتى امتزجت نظرياتهم بهذه الآراء وكان منهما مذهب (الافلاطونية الجديدة) وهو مذهب كنسي أكثر منه فلسفي وهكذا أخذ أثر الثقافة القديمة يضعف ويتفاعل أمام جور المتعسفين من حكام الرومان حتى قام ببناء الاسلام الشامخ في أقل من ربع قرن أكمل الله فيه على يد خير أمة أخرجت للناس . فكل قطر من الاقطار الاسلامية غير العربية التزم اللغة الرسمية السائدة لدولة ذلك القطر وقد أشرنا الى ان للاستعمار اليد الطولى في تكيف الشعب من حيث العناية باللغة والدين فللنواحي السياسية دخل في قوة وضعف كل من الاسلام ولغته ، اما الجاليات الاسلامية في الاقطار الغربية والآسيوية فانهم كانوا يعتنقون الاسلام على قدر وعيهم وثقافتهم وخبرتهم باللغة العربية فالنظر الى المتقنين هو من حيث المستوى الثقافي العلمي واما عامة الناس في الجاليات الاسلامية فيسودهم التقليد في التمسك بالاسلام .

(4) قد تعوق اللهجة الاتلمية أحيانا التعابير العربية المحلية لانها مزيج من لهجات اكتسبتها من اقاليم أخرى .

(5) اتنا في الاردن نهتم تلقائيا وعقيدة باللغة العربية كلفة للتخاطب ولا بد لنا من مجمع لغوي لكل تطر للاشراف على تهذيب ما طرا على اللغة وما قد يطرا عليها . ولا بد من العناية باللغات الاجنبية الاخرى ولكن المكانة التي تحتلها العربية في هذا البلد هي الاولى وختاما اشكر القائمين على المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي .